البحث العلمي في العلوم الإسلامية

بين التجديد وتقديس التراث

د. يوسي الهواري

جامعة وهران

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد:

إن الحديث عن البحث العلمي في العلوم الإسلامية هو نفسه الحديث عن البحث العلمي في الجزائر بصفة عامة، فإذا كان البحث العلمي في الجزائر يعاني من مشاكل عدة، منها ما يتعلق بالمؤسسات البحثية كالجامعات والتي أصبح دورها ينحصر في تخريج الطلبة ليشغلوا وظائف عدة في المجتمع، ومنها ما يتعلق بالظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تحيط بالباحث فتكون بذلك عائقا في طريق البحث العلمي، فكذلك البحث العلمي في العلوم الإسلامية يعاني من نفس المشاكل.

وبعيدا عن هذه المشاكل التي يستوي فيها البحث العلمي في العلوم الإسلامية مع باقي مجالات البحث العلمي في الجزائر، فإن البحث العلمي في العلوم الإسلامية ونظرا لخصوصيته فإنه في رأيي يعاني من مشكلة أعمق من هذا بكثير، **وهي مشكلة غياب صفة العلمية عن كثير من البحوث والدراسات الإسلامية**، فالكثير من هذه البحوث الإسلامية والمقدمة على أكثر من مستوى، ضلت الطريق فلم تحقق بذلك الهدف المنشود منها، وهو إضافة ما هو جديد في حقل المعرفة الإسلامية إضافة يكون لها أثرها في واقع الناس، علما أن هذا

الهدف هو المرجو من كل بحث علمي في أي حقل معرفي كان، وهو ما يؤكد عليه علماء المناهج:

فالمتأمل في الرسائل الجامعية في مختلف الجامعات وكذا البحوث المقدمة في مختلف المجلات الإسلامية، يلاحظ جليا فيها:

- التكرار والتشابه فالباحث ينظر في المجلات والدوريات العلمية ليقلد ما يجده مناسبا له من بحوث، وقد يكرر الباحث نفس البحث العلمي بكيفيات وأشكال عدة.

-معظم الرسائل الجامعية لا يحتوي على إشكالية يعالجها أو سؤال يجيب عليه.

-أكاديمية هذه البحوث والرسائل، أي بعدها عن الواقع المعاش أما النتائج التي تتوصل إليها فهي في معظمها وصفية أكثر منها تحليلية؛ مما يجعلها بحثا للماضي.. في الماضي.. ولأجله.

إن علمية البحوث والدراسات تقتضي أن يقدم الباحث ما هو جديد وأن يضيف إضافة نوعية، فإن البحث العلمي يعني اكتشاف الجديد، على أن هذا الجديد لا يمكن الوصول إليه إلا إذا تم تناول الموضوع محل البحث بجدية، مع ما في هذه الجدية من عمق في تحليل القضايا ونقدها، وهذا العمق لا يتأتى إلا من استبعاد أي خلفيات مهما كانت، مما يعني أن الباحث ينبغي أن يكون حياديا[1].

هذه الحيادية التي هي شرط أساسي في موقف الباحث من موضوعه تعتبر مثار إشكال كبير في تناول البحوث الإسلامية، إذ **كيف يمكن وصف بحث له علاقة بما هو مقدس –أي نصوص الكتاب والسنة- بالعلمي، وهل تخضع البحوث المتعلقة بالمعرفة الدينية للتساؤل وتعدد وجهات النظر؟**

إن الإجابة عن مثل هذه التساؤلات مرهونة بأمرين اثنين:

الأمر الأول: التصور الإسلامي للمعرفة يلاحظ بوضوح وجود اختلاف بين التصور الإسلامي للمعرفة والتصور الغربي، فبينما تنحصر مصادر المعرفة الغربية في الوجود تمتد المصادر الإسلامية لتشمل الوحي، وبناء على ذلك فإن المعرفة لدى الفكر الغربي محدودة وقاصرة على الجانب المقابل للملاحظة، وإن كانت لدى التصور الإسلامي تشمل الجوانب الغيبية، فالعلم بالمفهوم الغربي يكاد يكون محصورا في الجانب التجريبي، مما يلزم عنه إقصاء الدراسات الدينية والشرعية من وصف العلمية باعتبار المعرفة الدينية "ما ورائية" وقضاياها غيبية لا يمكن اختبارها بالتجربة المعملية التي هي مقياس ومعيار العلم التجريبي الحديث[2].

ومهما يكن من أمر نظرية المعرفة هذه في الفكر الغربي، فإن من مصادر المعرفة في الإسلام نصوص الكتاب والسنة وقد أفاض علماء الأصول في بيان كيفية دلالات الألفاظ على المعاني فبينوا رحمهم الله أن هذه النصوص منها ما قد يكون قطعي الثبوت والدلالة وهو المعروف بالمحكم ومثل هذا الأمر لا مجال للاجتهاد والنظر فيه فهو بمثابة المسلمات التي ينطلق منها لبناء المعرفة، أما ما كان ظني الدلالة فهو مجال رحب للاجتهاد، وعليه فإن التزام الموضوعية العلمية والحيادية لا يعني البحث في هذه المسلمات التي هي أساس المعرفة في الفكر الإسلامي.

-**الأمر الثاني**: لقد عرّف منهج البحث العلمي بأنّه: (الطريقة التي يتبعها العلماء في وضع قواعد العلم، وفي استنتاج معارفه على ضوء تلك القواعد)[3] ، ويؤكد علماء المناهج أن لكل علم منهج خاص به[4]، فالبحث في العلوم الطبيعية ليس كالبحث في الفقه أو الأصول، فالبحث إذن في العلوم الإسلامية يقتضي حتما تحديد الأسس العلمية لمنهج البحث وهذا حتى نصل إلى نتائج علمية

دقيقة من الناحية العلمية وسليمة من ناحية صفتها الإسلامية، أي لابد من أن نحقق في البحوث والنظريات والدراسات الإسلامية جانبين هم:

1-العلمية والواقعية.

2- الالتزام والأصالة الإسلاميان.

إن منهج البحث والتفكير الإسلامي في شتّى المجالات يشترك مع العلوم الطبيعية والمادية في الأسس العامة ويبتني عليها، فالباحث الإسلامي الذي يستهدف دراسة العقيدة الإسلامية أو اكتشاف نظرية في الأخلاق أو الاقتصاد والفنّ والاجتماع والسياسة وعلم النفس والسلوك... الخ، عليه أن يسير:

1 . وفق الأسس العامة لمنهج البحث المنطقي.

2 . وفق الأسس الخاصة لذلك العلم وتلك المعرفة، كالتفسير والتاريخ والرواية والعقيدة.

فبالتنسيق بين الأسس العامة والخاصة، يستطيع أن يوفر لنفسه منهجاً سليماً للبحث والتحقيق العلمي، وبناء النظرية الإسلامية والفكر الإسلامي المستنتج على أسس علمية صحيحة، وعليه فإن منهج البحث والتفكير الإسلامي ينطلق من اساسين اثنين هما:

-البديهات العقلية المسلّم بها.

. الأسس والكليات الإسلامية الثابتة لديه، كالآيات القرآنية أو السنة الصحيحة .

يتضح من خلال ما قد سبق أن البحوث الإسلامية من الناحية النظرية لا تنفك عنها صفة العلمية بالمفهوم الذي سبق ذكره وهو مفهوم يستند في أساسه إلى التصور الإسلامي للمعرفة، وإلى اختصاص البحوث الإسلامية بمنهج خاص، بيد أن أغلب البحوث والدراسات الإسلامية في الواقع تغيب عنها صفة العلمية بالمفهوم الذي سبق بيانه، هذه العلمية التي يمكن أن نستبدلها بمصطلح

آخر متداول بكثرة في تراثنا العلمي ألا وهو مصطلح الاجتهاد، فإن أغلب البحوث يغيب عنها الاجتهاد وهو غياب يرجع إلى عدة أسباب منها:

-**توسيع دائرة القطعيات والمسلمات**، كثيرة هي تلك البحوث والدراسات الإسلامية التي تعامل الآراء الفقهية والنصوص الاجتهادية معاملة القطعيات، فتنزل هذا الآراء الفقهية منزلة المسلمات التي لا يجوز النظر فيها، مع أن هذه الآراء هي مجرد وجهات نظر قد يعتريها ما يعتري الاجتهاد عموما من صواب وخطأ، ألم يقل أهل العلم في شرحهم لتعريف الفقه أن الفقه من باب الظنيات، وأن الأحكام الشرعية الثابتة بالنصوص القطعية ليست فقها[5].

-**طبيعة تكوين الباحث في مجال الدراسات الإسلامية**، لاشك أن تقديس الآراء الاجتهادية كان من نتائجه الحتمية توليد عقدة النقص في نفوس الباحثين فأين هم من أولئك العلماء، بينما قد يتوفر الباحث على إمكانيات تفوق من يعتقد فيه ما اعتقده، وكذلك الأمر بالنسبة للنظرة للكتب والمصنفات التي تحظى بالقبول تتم دراستها بطريقة تنزهها عن الخطأ والتهم وتخضع للتأويل والتبرير أحيانا.

-**غياب الأهلية الحقيقية للاجتهاد.**

-**تضخيم شروط الاجتهاد إلى حد يجعل من الاجتهاد أمرا مستحيلا.**

إن النقد مرحلة أساسية من مراحل التجديد، فنقد ما كتبه الأوائل ضرورة تفرضها حركية الزمن فالانتقال من مرحلة سابقة إلى مرحلة جديدة بحاجةٍ ماسة إلى مراجعة شاملة، فإذا أردنا أن نصل في المستقبل إلى ما هو أفضل علينا أن ننظر إلى ما كنا عليه، ومثل هذا الأمر يفرض علينا عدم التحيز للتراث أو ضده لما في ذلك من إلغاء لحركية الزمن ورفض مفهوم التطور في حين أن الانفتاح على إبداع الإنسان يفضي إلى رؤية شاملة للحياة والتاريخ.

-إن التجديد المنشود لابد وأنْ يبقى بعيد كل البعد عن ذلك

التجديد القائم على الاستلاب الحضاري نحو الغرب، فأدعياء هذا التجديد وإن كانت دعواهم مبررة بواقع الآمة المعاش إلا أنها تتخذ من الغرب نموذجا لا تحيد عنه البتة، وترى في الحضارة الغربية معيارا للتطور والرقي.

إن مثل هذا التجديد يؤدي حتما إما إلى رفض هذا التراث بحجة عدم قدرته على التجدد من داخله والانسجام مع الواقع بكل ما فيه من معطيات واعتباره عقبة كؤود في وجه التطور، وإما إلى إفراغ النصوص من محتواها ومضامينها وإخضاعها لنظريات كالبنيوية مثلا فبعضهم يؤلف كتابا يسميه قراءات القرآن بالجمع هذا القرآن الذي أنزل بلسان عربي مبين وبعضهم يعطي مفاهيم لأخرى للنصوص بحجة أن النص تشكل ضمن واقع ثقافي معين.

كما أن التجديد المنشود في البحوث والدراسات الإسلامية ليس هو اعادة ما هو قديم في ثوب جديد فحسب بل هو أيضا الوصول إلى جديد لم يكن إما بطريق الأخذ من القديم أم بطريق الاجتهاد والتجديد بهذا المعنى يضمن بقاء الثرات واستمراريته لما في هذا الجديد من روح ذلك القديم.

إن التراث الإسلامي يجب أن ينظر إليه على أنه إبداعٌ بشري وهو على هذا الأساس نسبي اقتضاه تفاعل الإنسان مع قضاياه الحادثة وقتها ومن الخطأ جعل هذا النسبي مطلقا لا يقبل التحويل ولا التغيير.

إن التراث الإسلامي عامة يشكل البنية المعرفية للأمة الإسلامية وهو قادر على التجدد من داخله والانسجام مع مقتضيات العصر أما قول من يقول أن التراث مصدر من مصادر التخلف فقول لم يعد قائما بل أصبح وجوب التعامل مع التراث أمرا حتميا لكون واقعا قائما يلقي بضلاله في أدهانا و مجتمعاتنا،كما أن هذا الثرات يملك من الخصائص

ما يجعله يتجدد في نفسه لأنه ثرات يستمد أصوله من كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وقد أراد الله لهذا الدين أن يكون خاتم الأديان ولهذه الشريعة أن تكون خالدة صالحة لكل زمان ومكان.كما أنّ: من الواضح أيضاً أن لكل علم ومعرفة من العلوم والمعارف البشرية منهج بحث.

الهوامش :

1- أنظر: مناهج البحث: د. غازي عناية، ص:169.
2- أنظر: المنطق الإسلامي أصوله ومناهجه: محمد تقي الدين المدرسي، ص: 137.
3- أنظر: في مناهج البحث والمنطق الحديث، د. علي معبد فوغلي، ص: 24.
منهجية البحث العلمي: د. غازي عناية، ص:94.
4- أنظر: العلم والبحث العلمي : د. حسين عبد الحميد رشوان، ص: 135.
5- أنظر: كتب أصول الفقه الأسنوي على المنهاج، ج1، ص: 33.